حسن البيان

في تفسير آي القرآن

سورة الطلاق

لأبي الطيب محمد بن حسن بن عباس

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين أجمعين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

حسن البيان في تفسير آي القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سُورَةُ الطَّارِقِ

أَسْمَاءُ السُّورَةِ: -

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقرَأُ فِي العِشَاءِ الآخِرَةِ بِالسَّمَاءِ -يَعنِي ذَاتِ البُرُوجِ- والسَّمَاءِ والطَّارِقِ»(١).

فَسَمَّاهَا أَبُو هُرَيرَةَ رضي الله عنه: «السَّمَاءِ والطَّارِقِ»، وسُمِّيَت فِي كُتُبِ التَّفسِيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ وفِي المَصَاحِفِ «سُورَةَ الطَّارِقِ»؛ لِوُقُوعِ هَذَا اللَّفظِ فِي أَولِهَا.

وفِي «تَفسِيرِ الطَّبَرِيِّ» و«أَحكَامِ ابنِ العَرَبِيِّ» تُرجِمَت «سُورَةُ والسَّمَاءِ والطَّارِقِ»(٢).

تَرْتِيبُ النُّزُولِ: -

عَدَدُهَا فِي تَرتِيبِ نُزُولِ السُّور السَّادِسَة والثَّلَاثونَ، نَزَلَت بَعدَ سُورَةِ «لَا أُقسِمُ بِهَذَا البَلَدِ»، وقَبلَ سُورَةِ: «اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ»(٣).

هَلِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ؟

نَقَلَ ابنُ الجَوزِيِّ وابنُ عَطِيَّةَ والبِقَاعِيُّ الإِجمَاعَ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ(٤).

---

(١) «مُسنَدُ أَحمَدَ» (٨٣٣٢).

(٢) «التَّحرِيرُ والتَّنوِيرُ» (٣٠/ ٢٥٧).

(٣) «تَفسِيرُ الزَّمخَشَرِيِّ» (٤/ ٧٣٤) «التَّحرِيرُ والتَّنوِيرُ» (٣٠/ ٢٥٧).

(٤) انظُر: «زَادُ المَسِيرِ فِي عِلمِ التَّفسِيرِ» (٤/ ٤٢٨) «المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٤) «مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّورِ» (٣/ ١٧٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مُنَاسَبَةُ السُّورَةِ لِمَا قَبلَهَا:

قَالَ السُّيُوطِيُّ: سُورَةُ البُرُوجِ والطَّارِقِ مُتَآخِيَتَانِ فَقُرِنَتَا، وقُدِّمَتِ الأُولَى لِطُولِهَا، وذُكِرَتَا بَعدَ الانشِقَاقِ لِلمُؤَاخَاةِ فِي الافتِتَاحِ بِذِكرِ السَّمَاءِ؛ ولِهَذَا ورَدَ فِي الحَدِيثِ ذِكرُ السَّمَاوَاتِ مُرَادًا بِهَا السُّورُ الأَربَعُ، كَمَا قِيلَ «المُسَبِّحَاتُ»(١).

وتُنَاسِبُ السُّورَةُ سَابِقَتَهَا فِي ذِكرِ البَعثِ، وأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ فِي سَابِقَتِهَا تَكذِيبَ الكُفَّارِ بِالقُرآنِ، فَذَكَرَ هُنَا سُبحَانَهُ أَنَّهُ قَولٌ فَصلٌ، وفِيهِ رَدٌّ عَلَى المُشرِكِينَ، وهُنَا تَبدُو السُّورَةُ مُلتَحِمَةً فِي مَقصِدٍ مِن أَعظَمِ مَقَاصِدِ القُرآنِ، وهُو الرَّدُّ عَلَى شُبُهَاتِ المُكَذِّبِينَ.

والمَقصِدُ العَامُّ لِسُورَةِ البُرُوجِ هُو الحَدِيثُ عَنِ الفِتَنِ، وتَسلِيَةُ المُؤمِنِينَ بِمَن كَانَ قَبلَهُم، ومِحوَرُ هَذِهِ السُّورَةِ بَيَانُ قُدرَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المُطلَقَةِ فِي الكَونِ، ومِن أَظهَرِ آيَاتِ القُدرَةِ أَنَّهُ سُبحَانَهُ يَنتَصِرُ لِأَولِيَائِهِ فِي أَيِّ وقتٍ شَاءَ.

وذَكَرَ فِي السُّورَةِ السَّابِقَةِ حِفظَ القُرآنِ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ، وفِي هَذِهِ حِفظَ السَّمَاءِ بِالنُّجُومِ، وحِفظَهُ لِلإِنسَانِ بِالحَفَظَةِ.

ولَمَّا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ البُرُوجِ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ [البروج:٩]، ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ [البروج:٢٠] وكَانَ فِي ذَلِكَ تَعرِيفُ العِبَادِ بِأَنَّهُ سُبحَانَهُ لَا يَغِيبُ عَنهُ شَيءٌ، ولَا يَفُوتُهُ هَارِبٌ، أَردَفَ ذَلِكَ بِتَفصِيلٍ يَزِيدُ إِيضَاحَ ذَلِكَ التَّعرِيفِ الجُمَلِيِّ، مِن شَهَادَتِهِ سُبحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ، وإِحَاطَتِهِ بِهِ، فَقَالَ: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا

(١) «أَسرَارُ تَرتِيبِ القُرآنِ» (ص١٥٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤].

فَأَعلَمَ سُبحَانَهُ بِخُصُوصِ كُلِّ نَفسٍ مِمَّن يَحفَظُ أَنفَاسَهَا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ لِيَعلَمَ العَبدُ أَنَّهُ لَيسَ بِمُهمَلٍ ولَا مُضَيَّعٍ، وهُو سُبحَانَهُ الغَنِيُّ عَن كُتُبِ الحَفَظَةِ وإِحصَائِهِم، ولَكِن هِيَ سُنَّةٌ؛ حَتَّى لَا يَبقَى لِأَحَدٍ حُجَّةٌ ولَا تَعَلُّقٌ، وأَقسَمَ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ تَحقِيقًا وتَأكِيدًا يُنَاسِبُ القَصدَ المَذكُورَ(١).

أَغرَاضُ السُّورَةِ:

السُّورَةُ مُشتَمِلَةٌ عَلَى التَّرغِيبِ فِي مَعرِفَةِ المَبدَأِ والمَعَادِ(٢)، والقَسَمِ عَلَى حِفظِ أَحوالِ الإِنسَانِ، والخَبَرِ عَن حَالِهِ فِي الِابتِدَاءِ والِانتِهَاءِ، وكَشفِ الأَسرَارِ فِي يَومِ الجَزَاءِ، والقَسَمِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ القُرآنِ جَزلٌ، غَيرُ هَزلٍ، مِن غَيرِ امتِرَاءٍ(٣).

وتَتَحَدَّثُ عَن إِحصَاءِ اللهِ ﷻ لِأَعمَالِ بَنِي آدَمَ، وحِسَابِهِم عَلَيهَا يَومَ القِيَامَةِ، وبَيَانِ مَجدِ القُرآنِ فِي صِدقِهِ فِي الإِخبَارِ بِتَنعِيمِ أَهلِ الإِيمَانِ وتَعذِيبِ أَهلِ الكُفرَانِ، فِي يَومِ القِيَامَةِ، حِينَ تُبلَى السَّرَائِرُ، وتُكشَفُ الضَّمَائِرُ عَن مِثقَالِ الذَّرَّةِ، ومَا دُونَ المِثقَالِ، ومَا دَونَتهُ الحَفَظَةُ فِي صَحَائِفِ الأَعمَالِ بَعدَ استِيفَاءِ الآجَالِ، كَمَا قَدَّرَ فِي أَزَلِ الآزَالِ، مِن غَيرِ استِعجَالٍ، ولَا تَأخِيرٍ عَنِ الوَقتِ المَضرُوبِ، ولَا إِهمَالٍ(٤).

(١) «البرُهَانُ فِي تَنَاسُبِ سُورِ القُرآنِ» (ص٣٦١).

(٢) «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣١/ ١١٧).

(٣) «بَصَائِرُ ذَوِي التَّمييزِ فِي لَطَائِفِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (١/ ٥١٢).

(٤) «مَصَاعِدُ النَّظَرِ لِلإِشرَافِ عَلَى مَقَاصِدِ السُّورِ» (٣/ ١٧٨)، «نَظمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الآيَاتِ =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* وتَضَمَّنَت ثَلَاثَةَ أُمُورٍ دَالَّةٍ عَلَى البَعثِ:

* الأَولُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطَّارِق:١] وهِيَ السَّمَاءُ ذَاتُ الطَّارِقِ، أَي: النَّجمِ، وعِظَمُ خَلقِهِ دَلِيلٌ عَلَى قُدرَةِ اللهِ ﷻ، وعَلَى قُدرَتِهِ عَلَى البَعثِ.

* الثَّانِي: أَنَّ اللهَ ﷻ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطَّارِق:٦]، والَّذِي خَلَقَ الإِنسَانَ مِن مَاءٍ -هَذَا المَاءُ المُتبعثِرُ والمُتَنَاثِرُ فِي الجَسَدِ- قَادِرٌ عَلَى أَن يُعِيدَ الإِنسَانَ إِذَا تَبَعثَرَ فِي الأَرضِ.

* الثَّالِثَةُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ [الطَّارِق:١١-١٢] إِنبَاتُ اللهِ ﷻ النَّبَاتَ إِحيَاءً لِلأَرضِ؛ فَالَّذِي أَحيَا الأَرضَ بَعدَ مَوتِهَا قَادِرٌ عَلَى أَن يُحيِيَ الإِنسَانَ بَعدَ مَوتِهِ.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣
إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦
يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩
فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطَّارِق:١-١٠]

=والسُّور» (٢١/ ٣٧٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾ [الطَّارِق:١]

* هُمَا قَسَمَانِ:

(والسَّمَاءِ) أَقسَمَ اللـهُ تَعَالَى بِالسَّمَاءِ المَعرُوفَةِ فِي قَولِ جُمهُورِ المُتأَوِّلِينَ(١).

(والطَّارِقِ) قَسَمٌ، وقَد أَكثَرَ اللـهُ فِي كِتَابِهِ مِنَ القَسَمِ بِالسَّمَاءِ والشَّمسِ والأَرضِ والقَمَرِ، فَهَذِهِ المَخلُوقَاتُ العَظِيمَةُ دَالَّةٌ عَلَى قُدرَةِ اللـهِ ﷻ.

الطَّارِقُ: السَّالِكُ لِلطَّرِيقِ، لَكِن خُصَّ فِي التَّعَارُفِ بِالآتِي لَيلًا، فَقِيلَ: «طَرَقَ أَهلَهُ طُرُوقًا»، وعُبِّرَ عَنِ النَّجمِ بِالطَّارِقِ؛ لِاختِصَاصِ ظُهُورِهِ بِاللَّيلِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾(٢).

* (طَرَقَ): الطَّاءُ والرَّاءُ والقَافُ أَربَعَةُ أُصُولٍ:

* أَحَدُهَا: الإِتيَانُ مَسَاءً.

* والثَّانِي: الضَّربُ.

فَالأَولُ الطُّرُوقُ، ويُقَالُ: إِنَّهُ إِتيَانُ المَنزِلِ لَيلًا، قَالُوا: «ورَجُلٌ طُرَقَةٌ» إِذَا كَانَ يَسرِي حَتَّى يَطرُقَ أَهلَهُ لَيلًا.

وذُكِرَ أَنَّ ذَلِكَ يُقَالُ بِالنَّهَارِ أَيضًا، والأَصلُ اللَّيلُ، والدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الأَصلَ اللَّيلُ تَسمِيَتُهُمُ النَّجمَ طَارِقًا؛ لِأَنَّهُ يَطلُعُ لَيلًا(٣).

(١) «تَفسِيرُ ابنِ عَطِيَّةَ = المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٤).

(٢) «المُفرَدَاتُ فِي غَرِيبِ القُرآنِ» (ص٥١٨).

(٣) انظُر: «مَقَايِيسُ اللُّغَةِ» (٣/ ٤٥٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والطَّـرِقُ: الـدَّقُّ، فَسُـمِّيَ قَاصِـدُ اللَّيـلِ طَارِقًـا؛ لِاحتِيَاجِـهِ فِي الوُصُـولِ إِلَى الـدَّقِّ(١).

ومِنهُ سُمِّيَتِ المِطرَقَةُ الَّتِي يَستَعمِلُهَا النَّجَارُ.

والعَرَبُ تُسَمِّي كُلَّ قَاصِدٍ فِي اللَّيلِ طَارِقًا، قَالَ الفَرَّاءُ والطَّبَرِيُّ: مَا أَتَاكَ لَيلًا فَهُو طَارِقٌ(٢).

۞ وعَن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لَا يَطرُقُ أَهلَهُ، كَانَ لَا يَدخُلُ إِلَّا غُدوةً أَو عَشِيَّةً»(٣).

۞ وعَن أَبِي التَّيَّاحِ، قَالَ: قُلتُ لِعَبدِالرَّحمَنِ بنِ خَنبَشٍ التَّمِيمِيِّ: كَيفَ صَنَعَ رَسُولُ اللـهِ ﷺ لَيلَةَ كَادَتهُ الشَّيَاطِينُ؟ فَقَالَ: إِنَّ الشَّيَاطِينَ تَحَدَّرَت تِلكَ اللَّيلَةَ عَلَى رَسُولِ اللـهِ ﷺ مِنَ الأَودِيَةِ، والشِّعَابِ، وفِيهِم شَيطَانٌ بِيَدِهِ شُعلَةُ نَارٍ، يُرِيدُ أَن يُحرِقَ بِهَا وجهَ رَسُولِ اللـهِ ﷺ، فَهَبَطَ إِلَيهِ جِبرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، قُل، قَالَ: «مَا أَقُولُ؟» قَالَ: «قُل: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللـهِ التَّامَّةِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ، وذَرَأَ وبَرَأَ، ومِن شَرِّ مَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، ومِن شَرِّ مَا يَعرُجُ فِيهَا، ومِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيلِ والنَّهَارِ، ومِن شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إِلَّا طَارِقًا يَطرُقُ بِخَيرٍ، يَا رَحمَنُ»، قَالَ: فَطُفِئَت نَارُهُم، وهَزَمَهُمُ اللـهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى(٤).

---

(١) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٥).

(٢) «مَعَانِي القُرآنِ لِلفَرَّاءِ» (٣/ ٢٥٤)، «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٨٨).

(٣) «صَحِيحُ البُخَارِيِّ» (١٨٠٠) «صَحِيحُ مُسلِمٍ» (١٩٢٨).

(٤) «مُسنَدُ أَحمَدَ» (١٥٤٦٠) وانظُر: «المُسنَدُ المُصَنَّفُ المُعَلَّلُ» (١٩/ ٣٩٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقَالَت هِندُ بِنتُ عُتبَةَ يومَ أُحُدٍ:

نَحنُ بَنَاتُ طَارِقِ نَمشِي عَلَى النَّمَارِقِ[١]

تَعنِي: إِنَّ أَبَانَا نَجمٌ فِي شَرَفِهِ وعُلُوِّهِ

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ [الطَّارِق:٢]

(مَا أَدرَاكَ) لِأَن الرَّسُولَ لَم يَدرِ أَيَّ طَارِقٍ أَرَادَ[٢].

وسَبَقَ الكَلَامُ عَنهَا مُفَصَّلًا.

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطَّارِق:٣]

أَي: المُضِيءُ المُتوهِّجُ، والنَّجمُ سُمِّيَ ثَاقِبًا؛ لِأَنَّهُ يَثقُبُ اللَّيلَ بِنُورِهِ، أَو لِأَنَّهُ يَثقُبُ الشَّيطَانَ إِذَا أُرسِلَ عَلَيهِ[٣].

(ثَقَبَ): الثَّاءُ والقَافُ والبَاءُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، وهُو أَن يَنفُذَ الشَّيءُ.

يُقَالُ: ثَقَبتُ الشَّيءَ أَثقُبُهُ ثَقبًا.

والثَّاقِبُ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطَّارِق:٣] قَالُوا: هُو نَجمٌ يَنفُذُ نُورُهُ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا.

---

(١) «تَفسِيرُ الثَّعلَبِيِّ = الكَشفُ والبَيَانُ عَن تَفسِيرِ القُرآنِ ط دَار التَّفسِيرِ» (٢٩/ ٢٠٣).

(٢) «تَفسِيرُ السَّمعَانِيِّ» (٦/ ٢٠٢).

(٣) «تَفسِيرُ الزَّمخَشَرِيِّ = الكَشَّافُ عَن حَقَائِقِ غَوامِضِ التَّنزِيلِ» (٤/ ٧٣٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

۞ ويُقَالُ: ثَقَبتُ النَّارَ إِذَا ذَكَّيتُهَا، وثَقَبتُ ذَلِكَ الشَّيءَ ثُقبَةٌ وذُكوةٌ.

وإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّ ضَوءَهَا يَنفُذُ.

والثَّاقِبُ: المُضِيءُ الَّذِي يَثقُبُ بِنُورِهِ وإِضَاءَتِهِ مَا يَقَعُ عَلَيهِ، وأَصلُهُ مِنَ الثُّقبَةِ، والمَثقَبُ: الطَّرِيقُ فِي الجَبَلِ، كَأَنَّهُ قَد ثُقِبَ(١).

والمَعنَى المِحورِيُّ لِلكَلِمَةِ هُو: اختِرَاقٌ دَقِيقٌ لِعُمقِ شَيءٍ مَتِينٍ: كَثَقبِ الدُّرِّ والجِلدِ والسِّترِ(٢).

وإِنَّمَا وُصِفَ النَّجمُ بِكَونِهِ ثَاقِبًا لِوُجُوهٍ:

* أَحَدُهَا: أَنَّهُ يَثقُبُ الظَّلَامَ بِضَوئِهِ؛ فَيَنفَذُ فِيهِ، كَمَا قِيلَ: دَرِيءٌ؛ لِأَنَّهُ يَدرَؤُهُ، أَي: يَدفَعُهُ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ والفَرَّاءُ وقَتَادَةُ: هُو المُضِيءُ(٣).

۞ وقَالَ مُجَاهِدٌ: المُتوهِّجُ(٤).

۞ وقَالَ الفَرَّاءُ: العَرَبُ تَقُولُ لِمَن يُرِيدُ أَن يُوقِدَ نَارًا: أَثقِب نَارَكَ(٥).

* وثَانِيهَا: أَنَّهُ يَطلُعُ مِنَ المَشرِقِ نَافِذًا فِي الهَواءِ؛ كَالشَّيءِ الَّذِي يَثقُبُ الشَّيءَ.

---

(١) «مَقَاييسُ اللُّغَةِ» (١/ ٣٨٢) «المُفرَدَاتُ فِي غَرِيبِ القُرآنِ» (ص١٧٣).

(٢) «المُعجَمُ الاشتِقَاقِيُّ المُؤَصَّلُ» (١/ ٢٤٤).

(٣) «مَعَانِي القُرآنِ لِلفَرَّاءِ» (٣/ ٢٥٤) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ٢٨٩).

(٤) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٨٩).

(٥) «مَعَانِي القُرآنِ لِلفَرَّاءِ» (٣/ ٢٥٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* وثَالِثُهَا: أَنَّهُ الَّذِي يُرمَى بِهِ الشَّيطَانُ فَيَثقُبُهُ أَي: يَنفُذُ فِيهِ ويُحرِقُهُ.

۞ قَالَ عَطَاءٌ: الثَّاقِبُ: الَّذِي تُرمَى بِهِ الشَّيَاطِينُ فَيَثقُبُهُم؛ كَقَولِهِ ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصَّافَّات: ١٠][(١)].

* ورَابِعُهَا: قَالَ الفَرَّاءُ[(٢)]: النَّجمُ الثَّاقِبُ: هُوَ النَّجمُ المُرتَفِعُ عَلَى النُّجُومِ، والعَرَبُ تَقُولُ لِلطَّائِرِ إِذَا لَحِقَ بِبَطنِ السَّمَاءِ ارتِفَاعًا: قَد ثَقَبَ[(٣)].

* وخَامِسُهَا: الثَّاقِبُ فِي مَسِيرِهِ ومَجرَاهُ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ[(٤)].

۞ وقَالَ الواحِدِيُّ: النَّجمُ: اسمُ الجِنسِ، وأُرِيدَ بِهِ العُمُومُ فِي قَولِ أَهلِ المَعَانِي وهُو مَذهَبُ أَكثَرِ أَهلِ التَّفسِيرِ، وهُو قَولُ الكَلبِيِّ، ومُقَاتِلٍ، وقَتَادَةَ، والحَسَنِ، والفَرَّاءِ والزَّجَّاجِ[(٥)].

۞ قَالَ ابنُ القَيِّمِ: والمُرَادُ بِهِ الجِنسُ، لَا نَجمٌ مُعَيَّنٌ، ومَن عَيَّنَهُ بِأَنَّهُ «الثُّرَيَّا»، أَو «زُحَلُ»: فَإِن أَرَادَ التَّمثِيلَ فَصَحِيحٌ، وإِن أَرَادَ التَّخصِيصَ فَلَا دَلِيلَ عَلَيهِ.

والمَقصُودُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَقسَمَ بِالسَّمَاءِ ونُجُومِهَا المُضِيئَةِ، وكُلٌّ مِنهَا آيَةٌ مِن آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وحدَانِيَّتِهِ[(٦)].

---

(١) «تَفسِيرُ الثَّعلَبِيِّ» (٢٩/ ٢٠٥).

(٢) «مَعَانِي القُرآنِ لِلفَرَّاءِ» (٣/ ٢٥٤).

(٣) «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣١/ ١١٧).

(٤) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٦).

(٥) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٠٤).

(٦) «التِّبيَانُ فِي أَيمَانِ القُرآنِ ط عَالَمِ الفَوَائِدِ» (١/ ١٥٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَاعِدَةٌ فِي التَّفسِيرِ:

۞ قَالَ السَّمعَانِيُّ: والعَرَبُ إِذَا أَطلَقَتِ النَّجمَ عَنَت بِهِ الثُّرَيَّا[١].

۞ وقَالَ ابنُ عَطِيَّةَ: الثُّرَيَّا: هُو الَّذِي يُطلَقُ عَلَيهِ اسمُ النَّجمِ مُعَرَّفًا[٢].

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطَّارِق:٤]

وجَوابُ القَسَمِ فِي قَولِهِ:[٣] ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطَّارِق:٤]

والمُقسَمُ عَلَيهِ -هَهُنَا- حَالُ النَّفسِ الإِنسَانِيَّةِ، والاعتِنَاءُ بِهَا، وإِقَامَةُ الحَفَظَةِ عَلَيهَا، وأَنَّهَا لَم تُترَك سُدًى، بَل قَد أُرصِدَ عَلَيهَا مَن يَحفَظُ عَلَيهَا أَعمَالَهَا ويُحصِيهَا، فَأَقسَمَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بِأَنَّهُ مَا مِن نَفسٍ إِلَّا عَلَيهَا حَافِظٌ مِنَ المَلَائِكَةِ، يَحفَظُ عَمَلَهَا وقَولَهَا، ويُحصِي مَا تَكسِبُ مِن خَيرٍ أَو شَرٍّ[٤].

وقَولُهُ جَلَّ ذِكرُهُ: ﴿لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطَّارِق:٤] فِيهِ وجهَانِ:

* أَحَدُهُمَا: (لَمَّا) بِمَعنَى (إِلَّا)، وتَقدِيرُهُ: إِن كُلُّ نَفسٍ إِلَّا عَلَيهَا حَافِظٌ، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ[٥] والحَسَنُ[٦] وقَتَادَةُ.

(١) «تَفسِيرُ السَّمعَانِيِّ» (٦/ ٢٠٣).

(٢) «تَفسِيرُ ابنِ عَطِيَّةَ = المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٥).

(٣) «تَفسِيرُ ابنِ عَطِيَّةَ = المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٥).

(٤) «التِّبيَانُ فِي أَيمَانِ القُرآنِ ط عَالَمِ الفَوَائِدِ» (١/ ١٥٩).

(٥) «صَحِيح البُخَارِيِّ - ط السُّلطَانِيَّة» (٤/ ١٣١) مُعَلَّقًا.

(٦) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

۞ وقَالَ ابنُ عَطِيَّةَ: ومَعنَى الآيَةِ: إن كُلُّ نَفسٍ مُكَلَّفَةٍ فَعَلَيهَا حَافِظٌ يُحصِي أَعمَالَهَا ويُعِدُّهَا لِلجَزَاءِ عَلَيهَا، وبِهَذَا الوجهِ تَدخُلُ الآيَةُ فِي الوعِيدِ الزَّاجِرِ(١).

وأَنكَرَ بَعضُهُم هَذِهِ القِرَاءَةَ:

۞ قَالَ الطَّبَرِيُّ: والقِرَاءَةُ الَّتِي لَا أَختَارُ غَيرَهَا فِي ذَلِكَ: التَّخفِيفُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُو الكَلَامُ المعرُوفُ مِن كَلَامِ العَرَبِ، وقَد أَنكَرَ التَّشدِيدَ جَمَاعَةٌ مِن أَهلِ المعرِفَةِ بِكَلَامِ العَرَبِ، أَن يَكُونَ مَعرُوفًا مِن كَلَامِ العَرَبِ، غَيرَ أَنَّ الفَرَّاءَ كَانَ يَقُولُ: لَا نَعرِفُ جِهَةَ التَّثقِيلِ فِي ذَلِكَ، ونَرَى أَنَّهَا لُغَةٌ مِن هُذَيلٍ، يَجعَلُونَ (إِلَّا) مَعَ (إِنِ) المخَفَّفَةِ (لَـمَا)، ولَا يُجَاوِزُونَ ذَلِكَ، كَأَنَّهُ قَالَ: مَا كُلُّ نَفسٍ إِلَّا عَلَيهَا حَافِظٌ، فَإِن كَانَ صَحِيحًا مَا ذَكَرَ الفَرَّاءُ، مِن أَنَّهَا لُغَةُ هُذَيلٍ، فَالقِرَاءَةُ بِهَا جَائِزَةٌ صَحِيحَةٌ، وإِن كَانَ الاِختِيَارُ أَيضًا -إِذَا صَحَّ ذَلِكَ عِندَنَا- القِرَاءَةُ الأُخرَى، وهِيَ التَّخفِيفُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُو المعرُوفُ مِن كَلَامِ العَرَبِ، ولَا يَنبَغِي أَن يُترَكَ الأَعرَفُ إِلَى الأَنكَرِ(٢).

۞ وقَالَ أَبُو عُبَيدٍ: لَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي كَلَامِ العَرَبِ، يَعنِي (لَـمَّـا)، بِمَعنَى (إِلَّا)، وقَد رُوِيَ عَنِ ابنِ سِيرِينَ أَنَّهُ كَرِهَ التَّشدِيدَ وأَنكَرَهُ(٣).

والمُنكَرُ هُو قَولُهُم، فَهِيَ قِرَاءَةٌ سَبعِيَّةٌ، وقَرَأَ عَاصِمٌ وابنُ عَامِرٍ وحَمزَةُ والكِسَائِيُّ والحَسَنُ والأَعرَجُ وأَبُو عَمرٍو ونَافِعٌ بِخِلَافٍ عَنهُمَا، وقَتَادَةُ: (لَـمَّـا) بِتَشدِيدِ المِيمِ،

(١) «تَفسِيرُ ابنِ عَطِيَّةَ = المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٥).
(٢) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩١).
(٣) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٠٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقَالَ أَبُو الحَسَنِ الأَخفَشُ: (لَـمَّـا) بِمَعنَى (إِلَّا) لُغَةٌ مَشهُورَةٌ فِي هُذَيلٍ وغَيرِهِم(١).

۞ عَنِ الحسَنِ، أَنَّهُ كَانَ يَقرَؤُهَا: ﴿إِن كُلُّ نَفسٍ لَّمَّا عَلَيهَا حَافِظٌ﴾ [الطَّارِق:٤] مُشَدَّدَةً، ويَقُولُ: «إِلَّا عَلَيهَا حَافِظٌ، وهَكَذَا كُلُّ شَيءٍ فِي القُرآنِ بِالتَّثقِيلِ»(٢).

* الثَّانِي: أَنَّ (مَا) الَّتِي بَعدَ اللَّامِ صِلَةٌ زَائِدَةٌ، وتَقدِيرُهُ: إِن كُلُّ نَفسٍ لَعَلَيهَا حَافِظٌ، قَالَهُ الأَخفَشُ.

۞ وقَالَ الواحِدِيُّ: أَقسَمَ اللهُ -بِمَا ذَكَرَ- أَنَّهُ مَا مِن نَفسٍ إِلَّا عَلَيهَا حَافِظٌ مِنَ المَلَائِكَةِ، تَحفَظُ عَمَلَهَا وقَولَهَا وفِعلَهَا، وتُحصِي مَا تَكسِبُ مِن خَيرٍ أَو شَرٍّ.

ذَكَرَ ذَلِكَ ابنُ عَبَّاسٍ، والكَلبِيُّ، وقَتَادَةُ، ومُقَاتِلٌ(٣).

وفِي (الحَافِظِ) قَولَانِ:

* أَحَدُهُمَا: هُو اللهُ ﷻ، كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب:٥٢]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتًا﴾ [النساء:٨٥](٤)، وهُو اختِيَارُ الزَّمخَشَرِيِّ.

* الثَّانِي: مِنَ المَلَائِكَةِ يَحفَظُونَ عَلَيهِ عَمَلَهُ مِن خَيرٍ أَو شَرٍّ، قَالَهُ قَتَادَةُ(٥).

(١) «تَفسِيرُ ابنِ عَطِيَّةَ = المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٥).
(٢) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٠) «تَفسِيرُ الثَّعلَبِيِّ» (٢٩/ ٢٠٨).
(٣) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٠٦).
(٤) «تَفسِيرُ الزَّمخَشَرِيِّ = الكَشَّافُ عَن حَقَائِقِ غَوَامِضِ التَّنزِيلِ» (٤/ ٧٣٤).
(٥) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

۞ قَالَ الفَرَّاءُ: الحَافِظُ مِنَ اللهِ ﷻ يَحفَظُهَا، حَتَّى يُسَلِّمَهَا إِلَى المَقَادِيرِ(١).

۞ فَإِن قُلتَ: إِنَّ الحَافِظَ المَلَائِكَةُ، صَدَقتَ، وإِن قُلتَ: إِنَّهُ اللهُ، صَدَقتَ؛ لِأَنَّهُ الآمِرُ لَهُم والمُقَدِّرُ عَلَى الحِفظِ، والحَافِظُ لَهُم مِنَ الوهَنِ والزَّيغِ، فَهُو الحَافِظُ الحَقِيقِيُّ(٢).

مَا الَّذِي يَحفَظُهُ هَذَا الحافِظُ؟

فِيهِ وُجُوهٌ:

* أَحَدُهَا: أَنَّ هَؤُلَاءِ الحفَظَةَ يَكتُبُونَ عَلَيهِ أَعمَالَهُ، دَقِيقَهَا وجَلِيلَهَا؛ حَتَّى تَخرُجَ لَهُ يَومَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلقَاهُ مَنشُورًا.

كَقَولِ رَبِّنَا: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفِطَار: ١١-١٢]، وكَقَولِ رَبِّنَا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] مَلَكَانِ يَكتُبَانِ كُلَّ شَيءٍ.

وثَانِيهَا: إِن كُلُّ نَفسٍ لَمَّا عَلَيها حافِظٌ يَحفَظُ عَمَلَهَا ورِزقَهَا وأَجَلَهَا، فَإِذَا استَوفَى الإِنسَانُ أَجَلَهُ ورِزقَهُ قَبَضَهُ إِلَى رَبِّهِ، وحَاصِلُهُ يَرجِعُ إِلَى وعِيدِ الكُفَّارِ وتَسلِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ؛ كَقَولِهِ: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مَريَم: ٨٤]، ثُمَّ يَنصَرِفُونَ عَن قَرِيبٍ إِلَى الآخِرَةِ فَيُجَازَونَ بِمَا يَستَحِقُّونَهُ.

۞ عَن قَتَادَةَ: قَولُهُ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطَّارِق:٤]: حَفَظَةٌ يَحفَظُونَ عَمَلَكَ ورِزقَكَ وأَجَلَكَ إِذَا تَوفَّيتَهُ يَا ابنَ آدَمَ قُبِضتَ إِلَى رَبِّكَ(٣).

(١) «مَعَانِي القُرآنِ لِلفَرَّاءِ» (٣/ ٢٥٥).

(٢) «نَظمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الآيَاتِ والسُّورِ» (٢١/ ٣٧٣).

(٣) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* وثَالِثُهَا: إِن كُلُّ نَفسٍ لَمَّا عَلَيهَا حَافِظٌ، يَحفَظُهَا مِنَ المَعَاطِبِ والمَهَالِكِ فَلَا يُصِيبُهَا إِلَّا مَا قَدَّرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَيهَا؛ كَقَولِ رَبِّنَا: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرَّعد:١١]، ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأَنعَام: ٦١].

* ورَابِعُهَا: قَالَ الفَرَّاءُ: إِن كُلُّ نَفسٍ لَمَّا عَلَيهَا حَافِظٌ يَحفَظُهَا حَتَّى يُسَلِّمَهَا إِلَى المَقَابِرِ، وهَذَا قَولُ الكَلبِيِّ.

واعلَم أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَقسَمَ عَلَى أَنَّ لِكُلِّ نَفسٍ حَافِظًا يُرَاقِبُهَا ويَعُدُّ عَلَيهَا أَعمَالَهَا، فَحِينَئِذٍ يَحِقُّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَن يَجتَهِدَ ويَسعَى فِي تَحصِيلِ أَهَمِّ المُهِمَّاتِ، وقَد تَطَابَقَتِ الشَّرَائِعُ والعُقُولُ عَلَى أَنَّ أَهَمَّ المُهِمَّاتِ مَعرِفَةُ المبدَأِ ومَعرِفَةُ المعَادِ[1].

ويُستَفَادُ مِن هَذِهِ الآيَةِ: إِلزَامُ التَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ، والنَّفسُ مِن طَبعِهَا أَنَّهُ إِذَا سُلِّطَ عَلَيهَا مَن يُرَاقِبُهَا ويَحفَظُهَا، احتَشَمَت مِن وقتِهَا وخَافَتهُ، وتَكُونُ مُتَيَقِّظَةً، ولَا تَرتَكِبُ مِنَ الأُمُورِ إِلَّا مَا تَعلَمُ أَنَّهُ لَا يَلحَقُهَا التَّبِعَةُ فِيهِ مِنَ الحُفَّاظِ؛ فَسَلَّطَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَيهِ المَلَكَانِ -أَيضًا- لِيَكُونَ مُتَيَقِّظًا فِي كُلِّ قَولٍ وفِعلٍ، فَلَا يُقبَلَ إِلَّا عَلَى مَا فِيهِ نَفعُ العَاجِلِ والآجِلِ.

وسَمَّى اللهُ تَعَالَى المَلَكَينِ: ﴿كِرَامٗا كَٰتِبِينَ﴾، ومَن صَحِبَ المُكَرَّمَ مِنَ الخَلَائِقِ احتَشَمَ مِنهُ، وتَوقَّى عَن إِتيَانِ مَا يُستَحيَا مِن مِثلِهِ، ومَن أَرَادَ أَن يَكتُبَ إِلَى أَحَدٍ كِتَابًا، لَم يُثبِت فِي كِتَابِهِ شَيئًا يُؤخَذُ عَلَيهِ، ويُذَمُّ بِهِ، بَل يُحكِمُ الأَمرَ، ويُصلِحُهُ غَايَةَ مَا يَحتَمِلُهُ

(١) «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣١/ ١١٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الوُسعُ؛ فَكَانَ فِي ذِكرِ الحُفَّاظِ عَلَى الأَنفُسِ إِلزَامُ التَّيَقُّظِ والتَّبَصُّرِ مِنَ الوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرنَا[١].

ثُمَّ نَبَّهَ عَلَى البَعثِ بِقَولِهِ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطَّارِق:٥-٧].

فَإِن قُلتَ: مَا وجهُ اتِّصَالِ قَولِهِ «فَلينظُر» بِمَا قَبلَهُ؟ قُلتُ: وجهُ اتِّصَالِهِ بِهِ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ عَلَى كُلِّ نَفسٍ حَافِظًا، أَتبَعَهُ تَوصِيَةَ الإِنسَانِ بِالنَّظَرِ فِي أَولِ أَمرِهِ ونَشأَتِهِ الأُولَى، حَتَّى يَعلَمَ أَنَّ مَن أَنشَأَهُ قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِ وجَزَائِهِ، فَيَعمَلَ لِيَومِ الإِعَادَةِ والجَزَاءِ، ولَا يُملِيَ عَلَى حَافِظِهِ إِلَّا مَا يَسُرُّهُ فِي عَاقِبَتِهِ[٢].

وإِمعَانُ النَّظَرِ فِيمَا خُلِقَ مِنهُ الإِنسَانُ مِمَّا يُوصِلُ المُنكِرِينَ لِلبَعثِ والمُنكِرِينَ لِلرِّسَالَةِ إِلَى القَولِ بِهِمَا، وذَلِكَ أَنَّ النُّطفَةَ الَّتِي خُلِقَ مِنهَا الإِنسَانُ لَو رُئِيَت مَوضُوعَةً عَلَى طَبَقٍ، ثُمَّ رَامَ أَحَدٌ أَن يَعرِفَ، وأَن يَنتَزِعَ مِنهَا المَعنَى الَّذِي بِهِ صَلُحَ أَن تَنشَأَ مِنهَا العَلَقَةُ والمُضغَةُ، وكَيفَ خُلِقَ مِنهَا الإِنسَانُ، لَم يُدرِك، ولَو اجتَمَعَ الإِنسُ والجِنُّ عَلَى أَن يُرَكِّبُوا عَلَيهَا جَارِحَةً مِن جَوارِحِ الإِنسَانِ، لَم يَتَهَيَّأ لَهُم تَركِيبُهَا، أَو تَعَرُّفُ المَعنَى الَّذِي صَلُحَ أَن يَنشَأَ مِنهُ السَّمعُ والبَصَرُ، لَم يُوقَفُوا عَلَيهِ؛ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الَّذِي بَلَغَت قُدرَتُهُ هَذَا لَا يَخفَى عَلَيهِ أَمرٌ، ولَا يُعجِزُهُ شَيءٌ، وتَبَيَّنَ لَهُم حِكمَتُهُ، وإِذَا عَرَفُوا حِكمَتَهُ

(١) «تَفسِيرُ المَاتُرِيدِيِّ = تَأوِيلَاتُ أَهلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٩٢).

(٢) «تَفسِيرُ الزَّمخَشَرِيِّ = الكَشَّافُ عَن حَقَائِقِ غَوامِضِ التَّنزِيلِ» (٤/ ٧٣٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أَدَّاهُم ذَلِكَ إِلَى القَولِ بِالبَعثِ؛ لِأَنَّهُ لَولَا البَعثُ لَكَانَ يَخرُجُ إِنشَاءُ الخَلقِ عَبَثًا بَاطِلًا؛ فَيَخرُجَ عَن أَن يَكُونَ حَكِيمًا، ولَزِمَهُم أَن يُصَدِّقُوا الرُّسُلَ بِجَمِيعِ مَا أَخبَرُوهُم بِهِ[١].

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطَّارِق:٦]

و﴿دَافِقٍ﴾ هَهُنَا مَعنَاهُ: مَدفُوقٌ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعنَاهُ: مِن مَاءٍ ذِي دَفقٍ[٢].

والدَّفقُ: الصَّبُّ، تَقُولُ العَرَبُ لِلمَوجِ إِذَا عَلَا وانحَطَّ: «تَدَفَّقَ واندَفَقَ».

وأَرَادَ مِن ماءَينِ، مَاءِ الرَّجُلِ، ومَاءِ المَرأَةِ؛ لِأَنَّ الولَدَ مَخلُوقٌ مِنهُمَا، ولَكِنَّهُ جَعَلَهُ مَاءً واحِدًا؛ لِامتِزَاجِهِمَا[٣].

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطَّارِق:٧]

أَي: مِن ظَهرِ الرَّجُلِ.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطَّارِق:٧] فِيهِ قَولَانِ:

* أَحَدُهُمَا: مِن بَينِ صُلبِ الرَّجُلِ وتَرَائِبِهِ، قَالَهُ الحَسَنُ وقَتَادَةُ.

---

(١) «تَفسِيرُ المَاتُرِيدِيِّ = تَأوِيلَاتُ أهلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٩٣)

(٢) «تَهذِيبُ اللُّغَةِ» (٩/ ٥٢) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٠٩).

(٣) «تَفسِيرُ الثَّعلَبِيِّ» (٢٩/ ٢١١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* **الثَّانِي**: بِمَعنَى أَصلَابِ الرِّجَالِ، وتَرَائِبِ النِّسَاءِ[١].

وفِيهِ أَربَعُ لُغَاتٍ: صُلبٌ وصَلبٌ وصُلُبٌ وصَالِبٌ.

وفِي التَّرَائِبِ سِتَّةُ أَقَاوِيلَ:

* **أَحَدُهَا**: أَنَّهُ الصَّدرُ، قَالَهُ سَعِيدُ بنُ جُبَيرٍ[٢].

* **الثَّانِي**: مَا بَينَ المَنكِبَينِ إِلَى الصَّدرِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ[٣].

* **الثَّالِثُ**: أَنَّهَا أَربَعَةُ أَضلَاعٍ مِنَ الجَانِبِ الأَسفَلِ، قَالَهُ ابنُ جُبَيرٍ، وحَكَى الزَّجَّاجُ أَنَّ التَّرَائِبَ: أَربَعَةُ أَضلَاعٍ مِن يُمنَةِ الصَّدرِ، وأَربَعَةُ أَضلَاعٍ مِن يُسرَةِ الصَّدرِ.

* **الرَّابِعُ**: أَنَّهَا بَينَ اليَدَينِ والرِّجلَينِ والعَينَينِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

* **الخَامِسُ**: هِيَ عُصَارَةُ القَلبِ، قَالَهُ مَعمَرُ بنُ أَبِي حَبِيبَةَ[٤].

* **السَّادِسُ**: مَوضِعُ القِلَادَةِ، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ[٥].

۞ **وقَالَ الطَّبَرِيُّ**: والصَّوابُ مِنَ القَولِ فِي ذَلِكَ عِندَنَا: قَولُ مَن قَالَ: هُو مَوضِعُ القِلَادَةِ مِنَ المَرأَةِ، حَيثُ تَقَعُ عَلَيهِ مِن صَدرِهَا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُو المعرُوفُ فِي كَلَامِ العَرَبِ[٦].

(١) «تَفسِيرُ المَاوردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٧)

(٢) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٣).

(٣) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٤).

(٤) «تَفسِيرُ المَاوردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٧).

(٥) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٣).

(٦) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

۞ وقَالَ أَبُو عُبَيدَةَ: التَّرَائِبُ مُعَلَّقُ الحُلِيِّ عَلَى الصَّدرِ، وهُو قَولُ جَمِيعِ أَهلِ اللُّغَةِ(١).

۞ وحَكَى الزَّجَّاجُ والرَّازِيُّ أَنَّ أَهلَ اللُّغَةِ أَجمَعُونَ قَالُوا: التَّرَائِبُ: مَوضِعُ القِلَادَةِ مِنَ الصَّدرِ(٢).

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطَّارِق:٨]

قَولُهُ جَلَّ ذِكرُهُ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطَّارِق:٨]، فِيهِ خَمسَةُ أَوجُهٍ:

* أَحَدُهَا: عَلَى أَن يَرُدَّ المَنِيَّ فِي الإِحلِيلِ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ(٣).

* الثَّانِي: عَلَى أَن يَرُدَّ المَاءَ فِي الصُّلبِ، قَالَهُ عِكرِمَةُ(٤).

* الثَّالِثُ: عَلَى أَن يَرُدَّ الإِنسَانَ مِنَ الكِبَرِ إِلَى الشَّبَابِ، ومِنَ الشَّبَابِ إِلَى الصِّبَا، ومِنَ الصِّبَا إِلَى النُّطفَةِ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ(٥).

* الرَّابِعُ: عَلَى أَن يَحبِسَ المَاءَ فَلَا يَخرُجَ.

* الخَامِسُ: عَلَى أَن يُعِيدَهُ حَيًّا بَعدَ مَوتِهِ، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ والحَسَنُ وعِكرِمَةُ

(١) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٠).

(٢) انظُر: «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١١) «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣١/ ١١٩).

(٣) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٧).

(٤) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٧).

(٥) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٢٩٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقَتَادَةُ والفَرَّاءُ ومُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ، والسَّمعَانِيُّ، وهو اختِيَارُ أَهلِ المَعَانِي، وهَذَا اختِيَارُ الإِمَامِ الطَّبَرِيِّ والثَّعلَبِيِّ والرَّازِيِّ وابنِ عَطِيَّةَ والقُرطُبِيِّ وابنِ القَيِّمِ، وهَذَا قَولُ ابنِ عَبَّاسٍ وقَتَادَةَ .

۞ قَالَ أَبُو إِسحَاقَ: ويَشهَدُ لَهُ قَولُهُ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطَّارِق:٩] أَي أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى بَعثِهِ يومَ القِيَامَةِ[1].

وهُو كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وقَولِهِ: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الرُّوم: ٢٧].

۞ قَالَ ابنُ القَيِّمِ: هَذَا هُو الصَّحِيحُ فِي مَعنَى الآيَةِ؛ لِوُجُوهٍ:

* أَحَدُهَا: أَنَّهُ هُو المَعهُودُ مِن طَرِيقَةِ القُرآنِ مِنَ الاستِدلَالِ بِالمَبدَأِ عَلَى المَعَادِ.

* الثَّانِي: أَنَّ ذَلِكَ أَدَلُّ عَلَى المَطلُوبِ مِنَ القُدرَةِ عَلَى رَدِّ المَاءِ فِي الإِحلِيلِ.

* الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَم يَأتِ فِي القُرآنِ لِهَذَا المَعنَى نَظِيرٌ فِي مَوضِعٍ واحِدٍ، ولَا أَنكَرَهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقِيمَ سُبحَانَهُ الدَّلِيلَ عَلَيهِ.

* الرَّابِعُ: أَنَّه قَيَّدَ الفِعلَ بِالظَّرفِ، وهُو قَولُهُ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطَّارِق:٩] وهُو يَومُ القِيَامَةِ؛ أَي أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَادِرٌ عَلَى رَجعِهِ إِلَيهِ حَيًّا فِي ذَلِكَ اليَومِ.

---

(1) انظر: «تَفسِيرُ الثَّعلَبِيِّ» (٢٩/ ٢١٧) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٤) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٧) «تَفسِيرُ السَّمعَانِيِّ» (٦/ ٢٠٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* الخَامِسُ: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي ﴿رَجْعِهِۦ﴾ [الطَّارِق:٨] هُو الضَّمِيرُ فِي قَولِهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطَّارِق:١٠] وهَذَا لِلإِنسَانِ -قَطعًا- لَا لِلمَاءِ.

* السَّادِسُ: أَنَّهُ لَا ذِكرَ لِلإِحلِيلِ[1] حَتَّى يَتَعَيَّنَ كَونُ الرَّجعِ إِلَيهِ، فَلَو قَالَ قَائِلٌ: عَلَى رَجعِهِ إِلَى الفَرجِ الَّذِي صُبَّ فِيهِ؛ لَم يَكُن فَرقٌ بَينَهُ وبَينَ هَذَا القَولِ، ولَم يَكُن أَولَى مِنهُ.

* السَّابِعُ: أَنَّ رَدَّ المَاءِ إِلَى الإِحلِيلِ أَوِ الصُّلبِ بَعدَ خُرُوجِهِ مِنهُ غَيرُ مَعرُوفٍ، ولَا هُو أَمرٌ مُعتَادٌ جَرَت بِهِ القُدرَةُ؛ وإِن كَانَ مَقدُورًا لِلرَّبِّ تَعَالَى، ولَكِن هُو لَم يُخبِر بِهِ، ولَم تَجرِ بِهِ العَادَةُ، ولَا هُو مِمَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ فِيهِ نَفيًا أَو إِثبَاتًا.

ومِثلُ هَذَا لَا يُقَرِّرُهُ الرَّبُّ تَعَالَى ولَا يَستَدِلُّ بِهِ عَلَى مُنكِرِيهِ، وهُو سُبحَانَهُ إِنَّمَا يَستَدِلُّ عَلَى أَمرٍ واقِعٍ ولَا بُدَّ، إِمَّا قَد وقَعَ ووُجِدَ، أَو سَيَقَعُ.

فَإِن قِيلَ: فَقَد قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ٣ - ٤] أَي: نَجعَلَهَا كَخُفِّ البَعِيرِ؟

۞ قِيلَ: هَذِهِ أَيضًا فِيهَا قَولَانِ:

* أَحَدُهُمَا: هَذَا.

والآخَرُ -وهُو الأَرجَحُ-: أَنَّ تَسوِيَةَ بَنَانِهِ إِعَادَتُهَا كَمَا كَانَت بَعدَمَا فَرَّقَهَا البِلَى فِي التُّرَابِ.

---

(١) الإِحلِيلُ: هُو مَخرَجُ البَولِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* **الثَّامِنُ**: أَنَّه سُبحَانَهُ دَعَا الإِنسَانَ إِلَى النَّظَرِ فِيمَا خُلِقَ مِنهُ؛ لِيَرُدَّهُ نَظَرُهُ عَن تَكذِيبِهِ بِمَا أُخبِرَ بِهِ، وهُو لَم يُخبَر بِقُدرَةِ خَالِقِهِ عَلَى رَدِّ المَاءِ فِي إِحلِيلِهِ بَعدَ مُفَارَقَتِهِ لَهُ، حَتَّى يَدعُوهُ إِلَى النَّظَرِ فِيمَا خُلِقَ مِنهُ؛ لِيَستَنتِجَ مِنهُ صِحَّةَ إِمكَانِ رَدِّ المَاءِ.

* **التَّاسِعُ**: أَنَّهُ لَا ارتِبَاطَ بَينَ النَّظَرِ فِي مَبدَأِ خَلقِهِ ورَدِّ المَاءِ فِي الإِحلِيلِ بَعدَ خُروجِهِ، ولَا تَلَازُمَ بَينَهُمَا، حَتَّى يُجعَلَ أَحَدُهُمَا دَلِيلًا عَلَى إِمكَانِ الآخَرِ، بِخِلَافِ الارتِبَاطِ الَّذِي بَينَ المَبدَأِ والمَعَادِ، والخَلقِ الأَولِ والخَلقِ الثَّانِي، والنَّشأَةِ الأُولَى والنَّشأَةِ الثَّانِيَةِ؛ فَإِنَّهُ ارتِبَاطٌ مِن وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ، ويَلزَمُ مِن إِمكَانِ أَحَدِهِمَا إِمكَانُ الآخَرِ، ومِن وُقُوعِهِ صِحَّةُ وُقُوعِ الآخَرِ، فَحَسُنَ الاستِدلَالُ بِأَحَدِهِمَا عَلَى الآخَرِ.

* **العَاشِرُ**: أَنَّهُ سُبحَانَهُ نَبَّهَ بِقَولِهِ: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ [الطَّارِق:٤] عَلَى أَنَّه قَد وكَّلَ بِهِ مَن يَحفَظُ عَلَيهِ عَمَلَهُ ويُحصِيهِ، فَلَا يَضِيعُ مِنهُ شَيءٌ.

ثُمَّ نَبَّهَ بِقَولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطَّارِق:٨] عَلَى بَعثِهِ؛ لِجَزَائِهِ عَلَى العَمَلِ الَّذِي حُفِظَ وأُحصِيَ عَلَيهِ.

فَذَكَرَ شَأنَ مَبدَأِ عَمَلِهِ ونِهَايَتِهِ، فَمَبدَؤُهُ مَحفُوظٌ عَلَيهِ، ونِهَايَتُهُ الجَزَاءُ عَلَيهِ[(١)].

وقَد سُبِقَ ابنُ القَيِّمِ لِبَعضِ هَذِهِ المَعَانِي؛ فَقَالَ المَاتُرِيدِيُّ: ولَم يُذكَر عَن أَحَدٍ التَّنَازُعُ فِي نَفيِ الرَّدِّ إِلَى الصُّلبِ وإِنكَارِهِ حَتَّى يَدفَعَ المُنَازَعَةَ بِهَذَا، وكَانُوا أَهلَ إِنكَارٍ بِالبَعثِ؛ فَاحتَجَّ عَلَيهِم بِابتِدَاءِ الخِلقَةِ، وكَذَلِكَ أَكثَرُ مَا جَرَى بِهِ الاحتِجَاجُ فِي إِثبَاتِ البَعثِ فِي القُرآنِ، إِنَّمَا احتَجَّ عَلَيهِم بِالابتِدَاءِ[(٢)].

---

(١) «التِّبيَانُ فِي أَيمَانِ القُرآنِ ط عَالَمِ الفَوائِدِ» (١/ ١٦٧).

(٢) «تَفسِيرُ المَاتُرِيدِيِّ = تَأوِيلَاتُ أَهلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٩٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فَائِدَةٌ: العَلَاقَةُ بَينَ خَلقِ الإِنسَانِ مِن مَنِيٍّ والبَعثِ:

الاستِدلَالُ بِهَذَا البَابِ، كَمَا أَنَّهُ يَدُلُّ قَطعًا عَلَى وُجُودِ الصَّانِعِ المُختَارِ الحَكِيمِ، فَكَذَلِكَ يَدُلُّ قَطعًا عَلَى صِحَّةِ البَعثِ والحَشرِ والنَّشرِ، وذَلِكَ لِأَنَّ حُدُوثَ الإِنسَانِ إِنَّمَا كَانَ بِسَبَبِ اجتِمَاعِ أَجزَاءٍ كَانَت مُتَفَرِّقَةً فِي بَدَنِ الوالِدَينِ، بَل فِي جَمِيعِ العَالَمِ، فَلَمَّا قَدَرَ الصَّانِعُ عَلَى جَمعِ تِلكَ الأَجزَاءِ المتَفَرِّقَةِ حَتَّى خَلَقَ مِنهَا إِنسَانًا سَوِيًّا، وجَبَ أَن يُقَالَ: إِنَّهُ بَعدَ مَوتِهِ وتَفَرُّقِ أَجزَائِهِ لَا بد أَن يَقدِرَ الصَّانِعُ عَلَى جَمعِ تِلكَ الأَجزَاءِ وجَعلِهَا خَلقًا سَوِيًّا، كَمَا كَانَ أَولًا ولِهَذَا السِّرِّ لَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى دَلَالَتَهُ عَلَى المبدَأِ، فَرَّعَ عَلَيهِ أَيضًا دَلَالَتَهُ عَلَى صِحَّةِ المعَادِ[1].

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطَّارِق:٩]

وقَولُهُ ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطَّارِق:٩] قَرِيبٌ مِنهُ فِي المَعنَى قَولُهُ ﷻ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العَادِيَات:١٠] أَي: يُمَيَّزُ.

فَيَظهَرُ سِرُّ كُلِّ إِنسَانٍ، ويَبدُو أَثَرُهُ عَلَى وجهِهِ، فَتَبيَضُّ بَعضُ الوُجُوهِ، وتَسودُّ بَعضُ الوُجُوهِ[2].

ومَعنَى ﴿تُبْلَى﴾ [الطَّارِق:٩]: تُختَبَرُ. قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ، ومُقَاتِلٌ، وقَتَادَةُ.

---

(١) «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣١/ ١٢١).

(٢) «تَفسِيرُ السَّمعَانِيِّ» (٦/ ٢٠٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

۞ وقَالَ الكَلبِيُّ، ومُقَاتِلٌ: بِمَعنَى تُظهَرُ[١].

۞ وقَالَ أَهلُ المَعَانِي: مَعنَى ﴿تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطَّارِق:٩] تُختَبَرُ بِإِظهَارِهَا، وإِظهَارُهَا مُوجِبُهَا، فَفِي الطَّاعَةِ الحَمدُ والثَّوابُ، وفِي المَعصِيَةِ الذَّمُّ والعِقَابِ، وهَذَا كَقَولِهِ: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [مُحَمَّد: ٣١] أَي: نَكشِفَهَا ونُظهِرَهَا[٢].

والسَّرَائِرُ فِيهَا قَولَانِ:

* أَحَدُهُمَا: كُلُّ مَا استَتَرَ بِهِ الإِنسَانُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وأَضمَرَهُ مِن إِيمَانٍ أَو كُفرٍ، كَمَا قَالَ الأَحوصُ:

سَتُبلَى لَكُم فِي مُضمَرِ السِّرِّ والحَشَا ... سَرِيرَةُ وُدٍّ يَومَ تُبلَى السَّرَائِرُ

* الثَّانِي: هُو مَا رَواهُ خَالِدٌ عَن زَيدِ بنِ أَسلَمَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الأَمَانَاتُ ثَلَاثٌ: الصَّلَاةُ والصَّومُ والجَنَابَةُ، استَأمَنَ اللهُ ابنَ آدَمَ عَلَى الصَّلَاةِ، فَإِن شَاءَ قَالَ: قَد صَلَّيتُ، ولَم يُصَلِّ، استَأمَنَ اللهُ ابنَ آدَمَ عَلَى الصَّومِ، فَإِن شَاءَ قَالَ: قَد صُمتُ، ولَم يَصُم، استَأمَنَ اللهُ ابنَ آدَمَ عَلَى الجَنَابَةِ، فَإِن شَاءَ قَالَ: قَد اغتَسَلتُ، ولَم يَغتَسِل، اقرَؤُوا إِن شِئتُم: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطَّارِق:٩]»[٣].

۞ وقَالَ مَالِكٌ فِي رِوايَةِ أَشهَبَ عَنهُ وسَأَلَهُ عَن قَولِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَآئِرُ﴾ [الطَّارِق: ٩] أَبَلَغَكَ أَنَّ الوُضُوءَ مِن السَّرَائِرِ؟ قَالَ: قَد بَلَغَنِي ذَلِكَ فِيمَا يَقُولُ

(١) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٥) «تَفسِيرُ المَاوردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٧).

(٢) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٦).

(٣) «تَفسِيرُ المَاوردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٨) ولم أعثر على الحديث.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

النَّاسُ، فَأَمَّا حَدِيثٌ أَخَذتُه فَلَا.

والصَّلَاةُ مِن السَّرَائِرِ، والصِّيَامُ مِن السَّرَائِرِ، إِن شَاءَ قَالَ: صَلَّيتُ، ولَم يُصَلِّ.

ومِنَ السَّرَائِرِ مَا فِي القُلُوبِ، يَجزِي اللـهُ بِهِ العِبَادَ[1].

۞ **وقَالَ الواحِدِيُّ:** والسَّرَائِرُ: أَعمَالُ بَنِي آدَمَ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، فَرَائِضُهُ الَّتِي أُوجِبَت عَلَيهِ، وهِيَ سَرَائِرُ بَينَ اللـهِ والعَبدِ، فَتُختَبَرُ تِلكَ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يَظهَرَ خَيرُهَا مِن شَرِّهَا، ومُؤَدِّيهَا عَن مُضَيِّعِهَا، وهَذَا مَعنَى قَولِ ابنِ عُمَرَ: «يُبدِي اللـهُ يَومَ القِيَامَةِ كُلَّ سِرٍّ، فَيَكُونُ زَينًا فِي الوُجُوهِ، وشَينًا فِي الوُجُوهِ».

يَعنِي: مَن أَدَّاهَا كَانَ وجهُهُ مُشرِقًا، ومَن ضَيَّعَهَا كَانَ وجهُهُ أَغبَرَ[2].

۞ **وقَالَ ابنُ القَيِّمِ:** وفِي التَّعبِيرِ عَنِ الأَعمَالِ بـ«السِّرِّ» لَطِيفَةٌ، وهِيَ أَنَّ الأَعمَالَ نَتَائِجُ السَّرَائِرِ البَاطِنَةِ، فَمَن كَانَت سَرِيرَتُهُ صَالِحَةً كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا، فَتَبدُو سَرِيرَتُهُ عَلَى وجهِهِ نُورًا وإِشرَاقًا وحُسنًا، ومَن كَانَت سَرِيرَتُهُ فَاسِدَةً كَانَ عَمَلُهُ تَابِعًا لِسَرِيرَتِهِ -لَا اعتِبَارَ بِصُورَتِهِ- فَتَبدُو سَرِيرَتُهُ عَلَى وجهِهِ سَوادًا وظُلمَةً وشَينًا.

وإِن كَانَ الَّذِي يَبدُو عَلَيهِ فِي الدُّنيَا إِنَّمَا هُو عَمَلُهُ لَا سَرِيرَتُهُ، فَيَومَ القِيَامَةِ تَبدُو عَلَيهِ سَرِيرَتُهُ، ويَكُونُ الحُكمُ والظُّهُورُ لَهَا، وفِي الحَدِيثِ: «أَنقُوا هَذِهِ السَّرَائِرَ؛ فَإِنَّهُ مَا أَسَرَّ امرُؤٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَلبَسَهُ اللـهُ رِدَاءَ سَرِيرَتِهِ».

---

(١) «أَحكَامُ القُرآنِ لِابنِ العَرَبِيِّ ط العِلمِيَّة» (٤/ ٣٧٦).

(٢) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفِيمَا كَتَبَ بَعضُ السَّلَفِ إِلَى بَعضٍ: «مَن أَصلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصلَحَ اللـهُ عَلَانِيَتَهُ».

وقَالَ بَعضُهُم: «مَن كَانَت سَرِيرَتُهُ خَيرًا مِن عَلَانِيَتِهِ فَهُو الفَضلُ، ومَن استَوت سَرِيرَتُهُ وعَلَانِيَتُهُ فَهُو العَدلُ، ومَن كَانَت عَلَانِيَتُهُ خَيرًا مِن سَرِيرَتُهُ فَهُو الجَورُ».

ومِن دُعَاءِ ابنِ عُمَرَ: «اللَّهُمَّ اجعَل سَرِيرَتِي خَيرًا مِن عَلَانِيَتِي، واجعَل عَلَانِيَتِي صَالِحَةً».

ومِن دُعَاءِ عَلِيِّ بنِ الحُسَينِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَن تُحَسِّنَ فِي لَوامِعِ العُيُونِ عَلَانِيَتِي، وتُقَبِّحَ فِي خَفِيَّاتِ العُيُونِ سَرِيرَتِي».

قَالَ الشَّاعِرُ:

سَتَبقَى لَهَا فِي مُضمَرِ القَلبِ والحَشَا ... سَرِيرَةُ حُبٍّ يَومَ تُبلَى السَّرَائِرُ[1]

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطَّارِق:١٠]

يَقُولُ تَعَالَى ذِكرُهُ: فَمَا لِلإِنسَانِ الكَافِرِ يَومَئِذٍ مِن قُوةٍ يَمتَنِعُ بِهَا مِن عَذَابِ اللـهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأَلِيمِ نَكَالِهِ، ولَا نَاصِرٍ يَنصُرُهُ، فَيَستَنقِذُهُ مِمَّن نَالَهُ بِمَكرُوهٍ، وقَد كَانَ فِي الدُّنيَا يَرجِعُ إِلَى قُوةٍ مِن عَشِيرَتِهِ، يَمتَنِعُ بِهِم مِمَّن أَرَادَهُ بِسُوءٍ، ونَاصِرٍ مِن حَلِيفٍ يَنصُرُهُ عَلَى مَن ظَلَمَهُ واضطَهَدَهُ[2].

(١) «التِّبيَانُ فِي أَيمَانِ القُرآنِ ط عَالَمِ الفَوائِدِ» (١/ ١٧٠).

(٢) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والتَّكَشُّفُ مِن كُلِّ سِترٍ مَعَ التَّجَرُّدِ مِن كُلِّ قُوةٍ يُضَاعِفُ شِدَّةَ المَوقِفِ، ويَلمِسُ الحِسَّ لَمسَةً عَمِيقَةَ التَّأثِيرِ .

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطَّارِق:١٠]

وقَولُهُ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ فِيهِ قَولَانِ:

* **أَحَدُهُمَا**: عَن سُفيَانَ الثَّورِيِّ، قَالَ: «القُوةُ: العَشِيرَةُ، والنَّاصِرُ: الحَلِيفُ»(٢).

* **الثَّانِي**: عَن قَتَادَةَ، قَالَ: «مِن قُوةٍ يَمتَنِعُ بِهَا، ولَا نَاصِرٍ يَنصُرُهُ مِنَ اللـهِ»(٣).

* **ويَحتَمِلُ ثَالِثًا**: فَمَا لَهُ مِن قُوةٍ فِي الِامتِنَاعِ، ولَا نَاصِرٍ فِي الِاحتِجَاجِ(٤).

۞ **وقَالَ المَاتُرِيدِيُّ**: كَانَ الكُفَّارُ يَفتَخِرُونَ بِقُواهُم وكَثرَةِ أَنصَارِهِم فِي الدُّنيَا، فَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُم لَو أُرِيدُوا بِالتَّعذِيبِ، دَفَعُوا ذَلِكَ بِأَنصَارِهِم، وبِمَا لَهُم مِنَ القُوى؛ فَيُخبِرُ اللـهُ تَعَالَى بِأَنَّ قُواهُم وكَثرَةَ أَنصَارِهِم لَا تَنفَعُهُم فِي الآخِرَةِ، ولَا تَدفَعُ عَنهُم بَأسَ اللـهِ تَعَالَى، وكَانُوا يَعبُدُونَ الأَصنَامَ؛ لِتُقَرِّبَهُم إِلَى اللـهِ تَعَالَى وتَنصُرَهُم مِنَ العَذَابِ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:٧٤]؛ فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تُغنِي عَنهُم مِنَ اللـهِ تَعَالَى شَيئًا(٥).

---

(٢) «تَفسِيرُ مُجَاهِدٍ» (ص٧٢٠).

(٣) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠١).

(٤) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٨).

(٥) «تَفسِيرُ المَاتُرِيدِيِّ = تَأوِيلَاتُ أهلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٩٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

۞ وقَالَ ابنُ القَيِّمِ: أَخبَرَ سُبحَانَهُ عَن حَالِ الإِنسَانِ فِي يَومِ القِيَامَةِ أَنَّه غَيرُ مُمتَنِعٍ مِن عَذَابِ اللهِ؛ لَا بِقُوةٍ مِنهُ، ولَا بِقُوةٍ مِن خَارِجٍ -وهُو «النَّاصِرُ»-؛ فَإِنَّ العَبدَ إِذَا وقَعَ فِي شِدَّةٍ: فَإِمَّا أَن يَدفَعَهَا بِقُوتِهِ، أَو بِقُوةِ مَن يَنصُرُهُ، وكِلَاهُمَا مَعدُومٌ فِي حَقِّهِ، ونَظِيرُهُ قَولُهُ سُبحَانَهُ: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأَنبِيَاء: ٤٣][(١)].

وسَبَقَهُ لِهَذَا المَعنَى ابنُ عَطِيَّةَ؛ حَيثُ قَالَ: ولَيسَ يُمتَنَعُ فِي الدُّنيَا مِنَ المَكَارِهِ إِلَّا بِأَحَدِ الوجهَينِ: إِمَّا بِقُوةٍ فِي ذَاتِ الإِنسَانِ، وإِمَّا بِنَاصِرٍ خَارِجٍ عَن ذَاتِهِ، فَأَخبَرَهُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الإِنسَانِ أَنَّهُ يُعدَمُهَا يَومَ القِيَامَةِ، فَلَا يَعصِمُهُ مِن أَمرِ اللهِ شَيءٌ[(٢)].

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطَّارِق:١١]

يُقسِمُ اللهُ ﷻ بِالسَّمَاءِ، ومَا فِيهَا مِنَ المَطَرِ.

وقَولُهُ ﷻ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطَّارِق:١١] فِيهِ أَربَعَةُ أَقَاوِيلَ:

* أَحَدُهَا: ذَاتُ المَطَرِ؛ لِأَنَّهُ يَرجِعُ فِي كُلِّ عَامٍ، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ[(٣)].

۞ قَالَ أَبُو عُبَيدَةَ: الرَّجعُ فِي كَلَامِ العَرَبِ: المَاءُ، وأَنشَدَ لِلهُذَلِيِّ يَصِفُ السَّيفَ:

أَبيَضُ كَالرَّجعِ رَسُوبٌ إِذَا مَا ... ثَاخَ فِي مُحتَفَلٍ يَختَلِي

(١) «التِّبيَانُ فِي أَيمَانِ القُرآنِ ط عَالَمِ الفَوائِدِ» (١/ ١٧١).

(٢) «تَفسِيرُ ابنِ عَطِيَّةَ = المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٦).

(٣) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

۞ قَالَ الفَرَّاءُ: تَبتَدِئُ بِالمَطَرِ، ثُمَّ تَرجِعُ بِهِ فِي كُلِّ عَامٍ.

۞ وقَالَ أَبُو إِسحَاقَ: الرَّجعُ: المَطَرُ؛ لِأَنَّهُ يَجِيءُ ويَرجِعُ ويَتَكَرَّرُ(١).

والحِكمَةُ مِن تَسمِيَةِ المَطَرِ رَجعًا أَنَّهُم أَرَادُوا التَّفَاؤُلَ(٢).

۞ قَالَ الحَسَنُ وقَتَادَةُ: تَرجِعُ بِأَرزَاقِ العِبَادِ كُلَّ عَامٍ، لَولَا ذَلِكَ هَلَكُوا وهَلَكَت مَواشِيهِم(٣).

۞ وقَالَ أَهلُ المَعَانِي: رَجعُ السَّمَاءِ إِعطَاءُ الخَيرِ الَّذِي يَكُونُ مِن جِهَتِهَا حَالًا بَعدَ حَالٍ عَلَى مُرُورِ الأَزمَانِ، تَرجِعُهُ رَجعَةً، أَي: تُعطِيهِ مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ(٤).

* الثَّانِي: ذَاتُ السَّحَابِ؛ لِأَنَّهُ يَرجِعُ بِالمَطَرِ.

* الثَّالِثُ: ذَاتُ الرُّجُوعِ إِلَى مَا كَانَت، قَالَهُ عِكرِمَةُ.

* الرَّابِعُ: ذَاتُ النُّجُومِ الرَّاجِعَةِ، قَالَهُ ابنُ زَيدٍ(٥).

* ويَحتَمِلُ خَامِسًا: ذَاتُ المَلَائِكَةِ؛ لِرُجُوعِهِم إِلَيهَا بِأَعمَالِ العِبَادِ، وهَذَا قَسَمٌ(٦).

---

(١) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٧).

(٢) «تَفسِيرُ الزَّمخَشَرِيِّ = الكَشَّافُ عَن حَقَائِقِ غَوامِضِ التَّنزِيلِ» (٤/ ٧٣٦).

(٣) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠٣).

(٤) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٨).

(٥) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٨).

(٦) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴾ [الطَّارِق:١٢]

ومَعنى الصَّدعِ في اللُّغَةِ: الشَّقُّ، يُقَالُ: صَدَعَهُ إِذَا شَقَّهُ فَتَصَدَّعَ، ومِنهُ قَولُهُ: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الرُّوم: ٤٣] أَي: يَتَفَرَّقُونَ، والعَرَبُ تَقُولُ: صَدَعتُ غَنَمِي صِدعَتَينِ؛ كَقَولِكَ: فَرَّقتُهَا فِرقَتَينِ(١).

فِيهَا أَربَعَةُ أَقَاوِيلَ:

* أَحَدُهَا: تَتَصَدَّعُ بِالنَّبَاتِ، قَالَهُ أَبُو عُبَيدَةَ، والفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، وهُو مَعنَى قَولِ ابنِ عَبَّاسٍ، وقَالَهُ مُجَاهِدٌ(٢) والمُفَسِّرُونَ(٣).

۞ قَالَ السَّمعَانِيُّ فِي الصَّدعِ: النَّبَاتُ، وهُو قَولُ الجَمِيعِ، وسُمِّيَ صَدعًا؛ لِأَنَّ الأَرضَ تَنصَدِعُ بِهِ(٤).

۞ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴾ [الطَّارِق: ١١] قَالَ: «المَطَرِ» ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطَّارِق: ١٢] قَالَ: «ذَاتِ النَّبَاتِ»(٥).

* الثَّانِي: ذَاتُ الأَودِيَةِ؛ لِأَنَّ الأَرضَ قَدِ انصَدَعَتِ بِهَا، قَالَهُ ابنُ جُرَيجٍ.

(١) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٩).
(٢) «صحيح البخاري معلَّقًا» (٦/ ١٦٨).
(٣) «مَعَانِي القُرآنِ لِلفَرَّاءِ» (٣/ ٢٥٥) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ» (٢٤/ ٣٠٤) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤١٩).
(٤) «تَفسِيرُ السَّمعَانِيِّ» (٦/ ٢٠٤).
(٥) «وقَالَ الحَاكِمُ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الإِسنَادِ ولَمْ يُخَرِّجَاهُ» «المُستَدرَكُ عَلَى الصَّحِيحَينِ لِلحَاكِمِ» (٢/ ٥٦٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

* **الثَّالِثُ**: ذَاتُ الطُّرُقِ الَّتِي تُصَدِّعُهَا المُشَاةُ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ.

* **الرَّابِعُ**: ذَاتِ الحَرثِ؛ لِأَنَّهُ يُصَدِّعُهَا.

* **ويَحتَمِلُ خَامِسًا**: ذَاتِ الأَمواتِ؛ لِانصِدَاعِهَا عَنهُم لِلنُّشُورِ، وهَذَانِ قِسمَا الأَرضِ الَّتِي تَتَشَقَّقُ فَيَخرُجُ مِنهَا النَّبَاتُ، هِيَ كَقَولِ رَبِّنَا: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عَبَسَ: ٢٦-٢٨] فَاللهُ ﷻ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَحيَا بِهِ الأَرضَ المَيتَةَ، قَادِرٌ سُبحَانَهُ عَلَى أَن يُحيِيَهَا بَعدَ مَوتِهَا[1].

۞ **وقَالَ ابنُ القَيِّمِ**: والتَّحقِيقُ: أَنَّ هَذَا عَلَى وجهِ التَّمثِيلِ، ورَجعُ السَّمَاءِ: هُو إِعطَاءُ الخَيرِ الَّذِي يَكُونُ مِن جِهَتِهَا حَالًا بَعدَ حَالٍ، عَلَى مُرُورِ الأَزمَانِ، تَرجِعُهُ رَجعًا، أَي: تُعطِيهِ مَرَّةً بَعدَ مَرَّةٍ.

والخَيرُ كُلُّهُ مِن قِبَلِ السَّمَاءِ يَجِيءُ، ولَـمَّـا كَانَ أَظهَرُ الخَيرِ المَشهُودِ بالعِيَانِ المَطَرَ فُسِّرَ «الرَّجعُ» بِهِ، وحَسَّنَ تَفسِيرَهُ بِهِ مُقَابَلَتُهُ بِصَدعِ الأَرضِ عَنِ النَّبَاتِ، وفُسِّرَ «الصَّدعُ» بِالنَّبَاتِ؛ لِأَنَّهُ يَصدَعُ الأَرضَ، أَي: يَشُقُّهَا.

فَأَقسَمَ سُبحَانَهُ بِالسَّمَاءِ ذَاتِ المَطَرِ، والأَرضِ ذَاتِ النَّبَاتِ، وكُلٌّ مِن ذَلِكَ آيَةٌ مِن آيَاتِ اللهِ تَعَالَى الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى[2].

---

(١) يُنظَر: «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٩).

(٢) «التِّبيَانُ فِي أَيمَانِ القُرآنِ ط عَالَمِ الفَوَائِدِ» (١/ ١٧٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفِي إِخرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الأَرضِ حِكمَةٌ عَجِيبَةٌ ولُطفُ تَدبِيرٍ؛ وذَلِكَ أَنَّ النَّبَاتَ شَيءٌ لَيِّنٌ يَنثَنِي بِأَدنَى مَسٍّ، ثُمَّ إِنَّ اللـهَ تَعَالَى بِلُطفِهِ صَدَّعَ لَهُ الأَرضَ اليَابِسَةَ الصُّلبَةَ، وأَخرَجَهُ مِنهَا غَيرَ مُنثَنٍ ولَا مُنكَسِرٍ؛ لِيَعلَمُوا أَنَّ مُدَبِّرَهُ حَكِيمٌ؛ فَيَلزَمَهُم بِهِ التَّوحِيدُ.

وجَعَلَ مَنَافِعَ الأَرضِ بِمَنَافِعِ السَّمَاءِ مُتَّصِلَةً؛ إِذِ الأَرضُ إِنَّمَا تَتَصَدَّعُ لِلنَّبَاتِ إِذَا أَصَابَهَا المَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ؛ فَيَكُونُ فِي ذَلِكَ إِنبَاءٌ أَيضًا أَنَّ مُدَبِّرَهُمَا واحِدٌ، ولَولَا ذَلِكَ لَم تَتَّصِل مَنفَعَةُ إِحدَاهُمَا بِالأُخرَى(١).

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ [الطَّارِق:١٣]

عَلَى هَذَا وقَعَ القَسَمُ، أَي أَنَّ القُرآنَ يَفصِلُ بَينَ الحَقِّ والبَاطِلِ بِالبَيَانِ عَن كُلِّ واحِدٍ مِنهما(٢)، كَمَا قِيلَ لَهُ (فُرقَانٌ).

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ يَعنِي أَنَّهُ جِدٌّ كُلُّهُ، لَا هَوادَةَ فِيهِ.

ومِن حَقِّهِ -وقَد وصَفَهُ اللـهُ بِذَلِكَ- أَن يَكُونَ مَهِيبًا فِي الصُّدُورِ، مُعَظَّمًا فِي القُلُوبِ، يَترَفَّعُ بِهِ قَارِئُهُ وسَامِعُهُ، وأَن يُلِمَّ بِهَزلٍ أَو يَتَفَكَّهَ بِمِزَاحٍ، وأَن يُلقِيَ ذِهنَهُ إِلَى أَنَّ جَبَّارَ السَّمَاوَاتِ يُخَاطِبُهُ فَيَأمُرُهُ وينهَاهُ، ويَعِدُهُ ويُوعِدُهُ، حَتَّى إِن لَم يَستَفِزَّهُ الخَـــوفُ، ولَم تَتَبَالَغ فِيهِ الخَشيَةُ، فَأَدنَى أَمرِهِ أَن يَكُونَ جَادًّا غَيرَ هَازِلٍ؛ فَقَد نَعَى اللـهُ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ذَلِكَ عَـــلَى المُشرِكِينَ فِـــي قَولِهِ: ﴿وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ٦٠ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم٦٠-٦١]، ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت:٢٦](٣).

(١) «تَفسِيرُ المَاتُرِيدِيِّ = تَأوِيلَاتُ أهلِ السُّنَّةِ» (١٠/ ٤٩٨).

(٢) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠٦) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٢٠).

(٣) «تَفسِيرُ الزَّمخَشَرِيِّ = الكَشَّافُ عَن حَقَائِقِ غَوَامِضِ التَّنزِيلِ» (٤/ ٧٣٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفِي المُرَادِ بِأَنَّهُ قَولٌ فَصلٌ قَولَانِ:

* أَحَدُهُمَا: مَا قَدَّمَهُ عَنِ الوعِيدِ مِن قَولِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ الآيَةَ؛ تَحقِيقًا لِوعِيدِهِ.

۞ قَالَ القَفَّالُ: المَعنَى أَنَّ مَا أَخبَرتُكُم بِهِ مِن قُدرَتِي عَلَى إِحيَائِكُم فِي اليَومِ الَّذِي تُبلَى فِيهِ سَرَائِرُكُم قَولٌ فَصلٌ وحَقٌّ(١).

فَعَلَى هَذَا فِي تَأوِيلِ قَولِهِ (فَصلٌ) وجهَانِ:

* أَحَدُهما: جِدٌّ، قَالَهُ ابنُ جُبَيرٍ.

* الآخَرُ: عَدلٌ، قَالَهُ الضَّحَّاكُ.

القَولُ: إِنَّ المُرَادَ بِالفَصلِ القُرآنُ تَصدِيقًا لِكِتَابِهِ، فَعَلَى هَذَا فِي تَأوِيلِ قَولِهِ (فَصلٌ) وجهَانِ:

* أَحَدُهُمَا: حَقٌّ، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ(٢).

* الآخَرُ: مَا رَوَاهُ الحَارِثُ عَن عَلِيٍّ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كِتَابُ اللهِ فِيهِ خَبَرُ مَا قَبلَكُم، وحُكمُ مَا بَعدَكُم، هُو الفَصلُ لَيسَ بِالهَزلِ، مَن تَرَكَهُ مِن جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، ومَن ابتَغَى الهُدَى فِي غَيرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ»(٣).

(١) «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣١/ ١٢٣).

(٢) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٩).

(٣) وقَالَ التِّرمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، لاَ نَعرِفُهُ إِلاَّ مِن هَذَا الوجهِ، وإِسنَادُهُ مجهُولٌ، وفِي الحَارِثِ مَقَالٌ. «سُنَنُ التِّرمِذِيِّ» (٢٩٠٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطَّارِق:١٤]

وهَذَا تَمَامُ مَا وقَعَ عَلَيهِ القَسَمُ، والمَعنَى أَنَّ القُرآنَ نَزَلَ لِلفَصلِ بَينَ الحَقِّ والبَاطِلِ، ولَم يَنزِل بِاللَّعِبِ، وهُو جِدٌّ لَيسَ بِالهَزلِ(١).

ولَيسَ فِي الشَّرِيعَةِ هَزلٌ، وإِنَّمَا هِيَ جِدٌّ كُلُّهَا؛ فَلَا يَهزِلُ أَحَدٌ بِعَقدٍ أَو قَولٍ أَو عَمَلٍ إِلَّا ويُنَفَّذُ عَلَيهِ؛ لِأَنَّ اللـهَ تَعَالَى لَم يَجعَل فِي قَولِهِ هَزلًا؛ وذَلِكَ لِأَنَّ الهَزلَ مَحَلٌّ لِلكَذِبِ، ولِلبَاطِلِ يُفعَلُ، ولِلَّعِبِ يُمتَثَلُ(٢).

وفِيهِ ثَلَاثَةُ أَوجُهٍ، وكُلُّهَا صَحِيحَةٌ، ولَها وجهٌ:

* **أَحَدُهَا:** بِاللَّعِبِ، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ، ومُجَاهِدٌ(٣).

* **الثَّانِي:** بِالبَاطِلِ، قَالَهُ وكِيعٌ والضَّحَّاكُ وابنُ عَبَّاسٍ(٤).

* **الثَّالِثُ:** بِالكَذِبِ، قَالَهُ السُّدِّيُّ(٥).

وفِي ظِلِّ هَذَا القَولِ الفَصلِ بِالرَّجعَةِ والِابتِلَاءِ يَتَّجِهُ الخِطَابُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ وهُو ومَن مَعَهُ مِنَ القِلَّةِ المُؤمِنَةِ فِي مَكَّةَ يُعَانُونَ مِن كَيدِ المُشرِكِينَ ومُؤَامَرَاتِهِم عَلَى

(١) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٢١).
(٢) «أَحكَامُ القُرآنِ لِابنِ العَرَبِيِّ ط العِلمِيَّة» (٤/ ٣٧٧).
(٣) «تفسير مجاهد» (ص٧٢١).
(٤) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠٧).
(٥) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٤٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدَّعوةِ والمُؤمِنِينَ بِهَا، وقَد كَانُوا فِي هَمٍّ مُقعِدٍ مُقِيمٍ لِلكَيدِ لَهَا والتَّدبِيرِ ضِدَّهَا وأَخذِ الطُّرُقِ عَلَيهَا، وابتِكَارِ الوسَائِلِ فِي حَربِهَا، يَتَّجِهُ الخِطَابُ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ بِالتَّثبِيتِ والتَّطمِينِ، وبِالتَّهوِينِ مِن أَمرِ الكَيدِ والكَائِدِينَ، وأَنَّهُ إِلَى حِينٍ، وأَنَّ المَعرَكَةَ بِيَدِهِ هُو سُبحَانَهُ وقِيَادَتِهِ.

فَلِيَصبِرِ الرَّسُولُ ﷺ ولِيَطمَئِنَّ هُو والمُؤمِنُونَ:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطَّارِق:١٥-١٧]

وإِنَّمَا يَكِيدُ المُكَذِّبُونَ ويَتَحَيَّلُونَ، ويُخَادِعُونَ لِرَدِّهِ ولَا يَرُدُّونَه بِحُجَّةٍ، واللهُ يَكِيدُهُم كَمَا يَكِيدُونَ دِينَهُ ورَسُولَهُ وعِبَادَهُ، وكَيدُهُ سُبحَانَهُ: استِدرَاجُهُم مِن حَيثُ لَا يَعلَمُونَ، والإِملَاءُ لَهُم حَتَّى يَأخُذَهُم عَلَى غِرَّةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأَعرَاف: ١٨٣]، فَالإِنسَانُ إِذَا أَرَادَ أَن يَكِيدَ غَيرَهُ يُظهِرُ لَهُ إِكرَامَهُ وإِحسَانَهُ إِلَيهِ حَتَّى يَطمَئِنَّ إِلَيهِ؛ ثم يَأخُذُهُ، كَمَا يَفعَلُ المُلُوكُ.

فَإِذَا فَعَلَ أَعدَاءُ اللهِ ذَلِكَ بِأَولِيَائِه ودِينِهِ كَانَ كَيدُ اللهِ لَهُم حَسَنًا لَا قُبحَ فِيهِ، فَيُعطِيَهِم ويُعَافِيَهِم، وهُو يَستَدرِجُهُم، حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذَهُم بَغتَةً[1].

(1) «التِّبيَانُ فِي أَيمَانِ القُرآنِ ط عَالَمِ الفَوائِدِ» (١/ ١٧٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكَيدُهُم يَكُونُ بِأُمُورٍ:

- إِمَّا بِالشُّبُهَاتِ الَّتِي يُلقُونَهَا؛ كَقَولِهِم: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨]، وكَقَولِهِم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩]، وكَقَولِهِم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ [الزُّخرُف: ٣١] ومِنهَا بِالطَّعنِ فِيهِ بِكَونِهِ سَاحِرًا وشَاعِرًا ومَجنُونًا.

- ومِنهَا: مُحَاولَتُهُم قَتلَ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَ﴾.

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطَّارِق:١٦]

كَقَولِ رَبِّنَا: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النِّسَاء:١٤٢].

والكَيدُ فِي اللُّغَةِ: هُو صُنعٌ يَصِلُ بِهِ إِلَى الشَّيءِ عَلَى الخُفيَةِ والاِستِتَارِ(١).

وأَصلُ (الكَيدِ): مُعَالَجَةُ الشَّيءِ بِقُوةٍ، واللهُ ﷻ لَا يُوصَفُ بِالكَيدِ صِفَةً مُطلَقَةً، لَكِنَّهُ يُوصَفُ بِهِ فِي مُقَابَلَةِ أَفعَالِ العِبَادِ، ولَا يُشتَقُّ للهِ ﷻ اسمُ الكَيدِ؛ لَكِنَّ الكَيدَ يَكُونُ مِنهُ سُبحَانَهُ فِي مُقَابَلَةِ كَيدِهِم.

وكَذَا المُخَادَعَةُ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النِّسَاء:١٤٢] يُطلَقُ عَلَى اللهِ ﷻ فِي مُقَابَلَةِ أَفعَالِ العِبَادِ، وكَيدُهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَى لَهُم: إِملَاؤُهُ لَهُم -إِمهَالُهُ

(١) «تَفسِيرُ السَّمعَانِيِّ» (٦/ ٢٠٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لَهُم- حَتَّى يَأْخُذَهُم بَغتَةً، قَالَ هَذَا المَعنَى الإِمَامُ الطَّبَرِيُّ وابنُ القَيِّمِ رحمهما الله.

۞ قَالَ الطَّبَرِيُّ: وأَمكُرُ مَكرًا؛ ومَكرُهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِهِم: إِملَاؤُهُ إِيَّاهُم عَلَى مَعصِيَتِهِم وكُفرِهِم بِهِ(١).

۞ وقَالَ سَهلٌ التُّستَرِيُّ: كَيدُهُ بِهِم فِي الدُّنيَا الاستِدرَاجُ والإِغتِرَارُ، وبِالآخِرَةِ الحَسرَةُ عِندَ نَظَرِهِم إِلَى إِكرَامِ المُوحِّدِينَ وإِعزَازِهِم، واللـهُ سُبحَانَهُ وتَعَالَى أَعلَمُ(٢).

۞ وقَالَ السَّمعَانِيُّ: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[الطَّارِق:١٦] الكَيدُ مِنَ اللـهِ: هُو الإِستِدرَاجُ مِن حَيثُ لَا يَعلَمُ الكُفَّارُ، والاستِدرَاجُ: هُو الأَخذُ قَلِيلًا قَلِيلًا، وقِيلَ: هِيَ الأَخذُ مِن حَيثُ يَخفَى عَلَيهِم، وقِيلَ: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أَي: أُعَاقِبُهُم عُقُوبَةَ كَيدِهِم(٣).

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطَّارِق: ١٧]

ومَعنَى (مَهِّل) و(أَمهِل): أَنظِر ولَا تَعجَل، ويُقَالُ: مَهلًا يَا فُلَانُ، أَي: رِفقًا وسُكونًا لَا تَعجَل(٤).

۞ قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ ومُقَاتِلٌ: هُو وعِيدٌ مِنَ اللـهِ تَعَالَى لَهُم(٥).

(١) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠٧).
(٢) «تفسير التُّستَرِيِّ» (ص١٩١) «تَفسِيرُ الرَّازِيِّ = مَفَاتِيحُ الغَيبِ أَوِ التَّفسِيرُ الكَبِيرُ» (٣١/ ١٢٣).
(٣) «تَفسِيرُ السَّمعَانِيِّ» (٦/ ٢٠٤).
(٤) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٢٣).
(٥) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٢٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقَولُهُ ﴿رُوَيْدًا﴾ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوجُهٍ:

* **أَحَدُهَا**: قَرِيبًا، قَالَهُ ابنُ عَبَّاسٍ.

* **الثَّانِي**: انتِظَارًا، ومِنهُ قَولُ الشَّاعِرِ:

رُوَيدَكَ حَتَّى تَنظُرِي عَمَّ تَنجَلِي ... عَمَايَةُ هَذَا العَارِضِ المُتَأَلِّقِ

* **الثَّالِثُ**: عَن قَتَادَةَ: الرُّوَيدُ: القَلِيلُ[(١)].

۞ **قَالَ الضَّحَّاكُ**: فَقُتِلُوا يَومَ بَدرٍ.

وفِي (مَهِّل) و(أَمهِل) وجهَانِ:

* **أَحَدُهُمَا**: أَنَّهُمَا لُغَتَانِ مَعنَاهُمَا واحِدٌ.

* **الآخَرُ**: مَعنَاهُمَا مُختَلِفٌ، فَمَهِّل: كُفَّ عَنهُم، وأَمهِل: انتَظِرِ العَذَابَ لَهُم[(٢)].

۞ **قَالَ ابنُ زَيدٍ، فِي قَولِهِ**: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطَّارِق: ١٧] قَالَ: مَهِّلهُم، فَلَا تَعجَل عَلَيهِم، تَرَكَهُم حَتَّى لَـمَّـا أَرَادَ الِانتِصَارَ مِنهُم، أَمَرَهُ بِجِهَادِهِم وقِتَالِهِم، والغِلظَةِ عَلَيهِم[(٣)].

۞ **وقَالَ الواحِدِيُّ وابنُ عَطِيَّةَ**: ونَسَخَ الإِمهَالَ بِآيَةِ السَّيفِ[(٤)]، ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التَّوبَة: ٥].

(١) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠٨).

(٢) «تَفسِيرُ المَاوَردِيِّ = النُّكَتُ والعُيُونُ» (٦/ ٢٥٠).

(٣) «تَفسِيرُ الطَّبَرِيِّ = جَامِعُ البَيَانِ ط هجر» (٢٤/ ٣٠٨).

(٤) «التَّفسِيرُ البَسِيطُ» (٢٣/ ٤٢٢) «تَفسِيرُ ابنِ عَطِيَّةَ = المُحَرَّرُ الوجِيزُ فِي تَفسِيرِ الكِتَابِ العَزِيزِ» (٥/ ٤٦٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقَولُهُ: ﴿رُوَيْدًا﴾ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهَا سَتُنسَخُ قَرِيبًا.

حُكِيَ أَنَّ الحَجَّاجَ كَانَ سِجنُهُ مِن رُخَامٍ، وأَرضُهُ مِن رَصَاصٍ، فَكَانَ يَتلَونُ بِتَلَوُّنِ الأَوقَاتِ، فَوقتَ الحَرِّ يَكونُ جَهَنَّمَ، ووقتَ البَردِ يَكونُ زَمهَرِيرًا، فَمَرَّ بِهِ يَومًا فَاستَغَاثُوا، فَطَأَطَأَ رَأسَهُ لَهُم وقَالَ: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨]، فَأَخَذَتِ الأَرضُ قَوائِمَ جَوادِهِ، فَرَفَعَ طَرفَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وقَالَ: سُبحَانَكَ، لَا يُعَجِّلُ بِالعُقُوبَةِ إِلَّا مَن يَخَافُ الفَوتَ، وانطَلَقَ مِن وقتِهِ.

فَإِنَّ العَجَلَةَ -وهِيَ إِيقَاعُ الشَّيءِ فِي غَيرِ وقتِهِ الأَلَيقِ بِهِ- نَقصٌ؛ فَإِنَّهُ لَا يُعَجِّلُ إِلَّا مَن يَكُونُ مَا يَفعَلُهُ المُستَعجَلُ عَلَيهِ خَارِجًا عَن قَبضَتِهِ[1].

(١) «نَظمُ الدُّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الآيَاتِ والسُّورِ» (٢١/ ٣٨٥).